الانسان يحصدُ ما يزرع في تربة الحياة

"التطوّر قانون الحياة والوجود، وكل من يرفض التطور أو يعاكس مساره إنما يخرج عن هذا القانون". من هذا القول الوارد في كتاب "الايزوتيريك يثقف ملكاً" إعداد وتنسيق "ج.ب.م." ننطلق الى البحث في واقع الانسان وضرورة ارتقائه الى مستوى انسانيته.
عندما استوى الانسان على الارض، باشر مسيرة التطور في الوعي، ولم يوفّر جهداً في انتهاج خط تصاعدي عكسي يؤوب به الى مصدره واعياً في نهاية المطاف. الا ان انجراره خلف ملذاته وشهواته الارضية وانغماسه في المادة أبعداه عن ذاته، فبات يتخبط في الفوضى الفكرية، وأهمل التنظيم والتزم العشوائية في تعامله، مما أدى الى ظهور القلق والرتابة، حتى انه لم يسعَ لاكتشاف ما ينقصه أو ما تخفيه الحياة من الغاز واسرار.
نسمع البعض يقول: "ان الله لا يكملها مع عباده..." ونسألهم: هل سعى الانسان لإدراك الاكتفاء المادي والارتقاء في الوعي والفهم والمحبة؟ فكيف يطلب الحياة العادلة الكاملة وهو يقبع في غياهب أفكاره المجزأة والمحدودة والبعيدة من منطق الحياة؟
ليس المطلوب الآن أن نبلغ ما لم نستطع بلوغه، بل أن نضاعف جهدنا لانتهاج المسيرة القدرية على طريق الاكتفاء والرضا الذاتي والتطوّر في الوعي الانساني.
منذ أن خَلق الكون، وضع الخالق له مسارات دقيقة ومنظمة لا تتخلف عنها مجرّة ولا يحيد عنها كوكب، فبدأ الانسان محجّته الارضية ملتزماً النظم الإلهية وقوانينها... قوانين لا تحتمل الشك أو المسّ بعدلها وقداستها، قوانين تدفع به الى الارتقاء في الحياة وتهيئ له الظروف اللازمة لتحقيق هدف وجوده...
الا أن الانسان المعاصر تغاضى عن تقديمات الحياة، فبات يبحث عن اسباب ما يحدث معه في القشور ولم تصل أفكاره يوماً الى الجوهر، واعتاد اتهام القضاء والقدر بكل مصائبه وانه لا حول ولا قوة له أمام مشيئة الله وارادته. لكن اليست إرادة الانسان امتداداً للارادة الكونية؟
ان الوعي هو الذي يلازمنا على الارض، فنفهم به رسالة الحياة ونقرأ بقلوبنا وعقولنا الحقائق التي تنقلها لنا فتتشرّب منها الفهم والمحبة والخير والعطاء... أما من اختار تجاهل نداء الحياة ومخالفة قانونها فلا يظن ان السعادة ستزوره يوماً...
اذا تمعّنا في البحر مثلاً، قد نرى من جهة مدى روعة أفقه وسعته وصفاء مياهه وسكون أعماقه، وقد نرى من جهة أخرى ارتطام أمواجه وخطر أعماقه وملوحة مياهه. البحر لم تتغيّر معالمه الا ان عين الناظر هي التي اختلفت.
أليست الحياة على غرار البحر، تختلف نظرة الاشخاص اليها، فيما هي تحضن الجميع دائماً، وتبقى مصدر وعي ومحبة وعطاء؟ فهل يتوقع من ينكر جميلها، أن يحصل على جوائز ترضية للتعويض عن جهله؟
رغم ظلم الانسان لها واصداره الاحكام القاسية في حقها، تبقى الحياة مسامحة، تقدّم له طريق العودة الى السعادة وتهيئ له الظروف ليكفّر عن ذنوبه بحقها، كما وأنه، على صعيد الجماعة، ترسل في كل زمان رسولاً يصلح اعوجاج المجتمعات وضياعها في غياهب المادة وشرودها عن الحق والوعي والمحبة ويرشدها الى القيم والمبادئ السامية.
الحياة مسار وعي بدأها الانسان مذ تمدد من موئل النور حاملاً معه سراجاً يضيء طريقه، الا ان نور السراج ما لبث ان اضمحّل بفعل رياح السلبيات التي ابتدعها الانسان وهو سائر على مسار الحياة... فباتت دربا مليئة بالعقبات والمشقات، ودرباً وعرة شاقة، انما يسهل على الوعي اجتيازها من خلال تسليط نور المعرفة عليها. أما من اختار الجهل مصباحاً يتوهّم من خلاله رؤية طريقه بوضوح، فليس من المستغرب ان يتخبط ويعاني ويشكو "ظلم الحياة" وينسب ما يتعرّض له الى "بلاء من الله"، من دون أن يتساءل هل المشيئة الالهية تتلهى بمصائر البشر وتختار ان تنعم أو تبتلي شخصاً من دون آخر؟
ان الانسان سيّد نفسه ومصيره... يحصد ما يزرع في تربة الحياة، ينشر فيها بذور اعماله وتصرفاته، فاذا كانت صالحة مضمّخة بالخير والعطاء، حصد محبة الحياة ورأفتها وسخاءها. أما اذا كانت تحمل السيئات والسلبيات فمن الطبيعي أن يحصد الألم والعذاب والمشقات.
لفت انتباهي هذا القول المأثور من كتاب الإيزوتيريك "اللاوعي إن حكى": "إن مصاعب الحياة حجارة عثرة على درب الوعي، لكن بين الحجر والآخر فسحة لتثبت قدميك عليها فما بالك تبصر العثرة ولا ترى الفسحة؟".
الحكمة تكمن في أن يَثبت الانسان قدميه في صلب هذه الصعوبات ويواجهها بقوّة وحزم وإرادة وثقة، فيتبدد مذاق الشقاء والالم، وقد يعتري المرء شعور الغبطة ما بين الفينة والاخرى، هنيهات سعادة تكلّل طريق السعي والوعي وكشف مكنونات الحياة وألغازها. وعلى الانسان أن لا يهدر الوقت بعيداً من درب التطور الذاتي. واستشهد بما ورد في كتاب "مناجاة القلب والوعي" بقلم ج.ب.م.: "أكثر الناس سعادة هو الذي يعرف كيف يفيد من الوقت ويغتنم الفرص، وينتزع المناسبات! فهو في ضمير الحياة حيّ أبداً...".
ختاماً، لكل من يضع نصب عينيه هدف تطوير نفسه وتنظيم حياته والارتقاء بوعيه نقدّم هذا الاختبار الذاتي القائم على استشفاف واقع كل منحى حياتي (اجتماعي، فكري، نفسي، عاطفي...) لدى كل شخص ومقدار ما حققه، فيتبيّن عندئذ ما يحتاج اليه ويضع الخطط لمعالجة النواقص التي يواجهها...
قد نلاحظ ان المعارض الاول لصدقية الاختبار هي "الأنا" (Ego) التي تسعى دائماً لايجاد المبررات لكل خطأ أو نقص، فيدخل الانسان في دوامتها ويعتبر نفسه الأفضل وذلك لمحدودية نظره... لذا فعلى المختبر ان يسعى لترويض الأنا في نفسه باعتبار أن نتيجة تطوّره تعتمد اساساً على هذا التقييم الاولي. من الأفضل أن يعيد كل شخص هذا الاختبار شهرياً ويقارنه مع السابق، فيرى مدى تطوره أو تخلّفه واضعاً خطة سعي الى الافضل وملتزماً بها.

باسل أسعد